يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

يوم القيامة يُنادَى معشر الجنّ والإنس في أسلوب التّقرير : ألم يأتكم يامعشر الجنّ نذر ويامعشر الإنس رسل من جملتكم ومجموعكم . قال ابن عبّاس : الرّسل من بني آدم ومن الجنّ نذر[1] ألم يصلكم يامعشر الجنّ والإنس نذرٌ ورسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي ويتلون عليكم كلامي وينذرونكم لقاء يومكم هذا الّذي جحدتموه وأنكرتموه وما استعددتم له ولا عملتم في حياتكم الدّنيا من أجله الأعمال الصّالحة الّتي تبيضّ بها وجوه المؤمنين .

وأجاب معشر الجنّ والإنس والكافرون من الفريقين وقالوا شهدنا على أنفسنا أنّ النّذر قد جاءتنا والرّسل قد وصلتنا وقد بلّغ كلّ الرّسالة وأدّى الأمانة وأخلص النّصح لنا ولكنّا غرّتنا الحياة الدّنيا وشغلتنا بزينتها وزخرفها وذهلنا بها عن الآخرة والإيمان بها والعمل لها وهانحن أولاء نشهد بأنّ كنّا كافرين بيوم القيامة مكذّبين رسل الله تعالى إلينا غير مصدّقين بآيات الله تعالى الّتي تلاها علينا رسل الله تعالى بل اتّخذناها هزواً ولعباً وقد تأكّد لنا خطؤنا حيث لا مجال لتصحيح خطأ وقد ازداد ألمنا وحسرتنا حيث لاينفع ندم ولا حسرة . جاء في الحديث الّذي رواه التّرمذيّ وغيره أنّ رسول الله ﷺ تلا على الجنّ ببطن نخلة سورة الرّحمن وقد أشار إلى ذلك كلّ من سورة الجنّ وسورة الأحقاف[2]

ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

ذلك ، أي إرسال الرّسل للثّقلين الّذين يتلون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء يوم القيامة من أجل أنّ ربّك يامحمّد لم يكن مهلك القرى بظلمٍ منهم وإشراكٍ مع الله تعالى غيره وقد

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٧/٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٧٧/٢ و١٦١/٤ في تفسير الآية ٢٩ من سورة الأحقاف .

قال عزّ من قائل[1] :﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وأهلها غافلون لم يبعث الله تعالى إليهم رسولا . وقد قال عزّ من قائل[2] :﴿ وماكنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا ﴾

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

ولكلّ من هؤلاء العاملين من الجنّ والإنس مراتب ومنازل ينزلونها يوم القيامة في الجّنة أو النّار بناءً على صالح الأعمال أو فاسدها الّتي يحصيها الموكلون بتلك الأعمال ويثبتونها . وما ربّك بغافلٍ عمّا يعملون في السّرّ والعلن في اللّيل والنّهار من حسن الأعمال وسيّئها :﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد ﴾[3]

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

إنّ إرسال الرّسل وإنزال الكتب من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده . وهذه الآية الكريمة تنصّ على هذه الرّحمة بصريح اللّفظ . إنّ ربّك يامحمّد هو الغنيّ عن عباده وعن عبادتهم وإنّما أمرهم جلّ وعلا بالعبادة كي يثيبهم عليها وكي يظهر التّمايز وتتفاوت الدّرجات يوم القيامة ، وربّك يامحمّد ذو الرّحمة بعباده ، وأنت أيّها النّبيّ الكريم والرّسول العظيم من مظاهر رحمتي للعالمين : ﴿ وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين ﴾[4]

إنّ ربّكم الغنيّ ذالرّحمة إن يشأ يذهبكم يا أهل مكّة ويا أيّها الظّالمون في كلّ زمانٍ ومكان ويستأصل شأفتكم بسبب ذنوبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء من العباد الّذين لن

---

(١) سورة لقمان ١٣ .
(٢) سورة الإسراء ١٥ .
(٣) سورة ق ١٨ .
(٤) سورة الأنبياء ١٠٧ .

يكونوا أمثالكم . إنّكم أيّها المخاطَبون المنذَرون الدّليل على قدرتي وقوّتي لأنّي أنشأتكم من ذرّيّة قومٍ آخرين قد بادوا واستخلفتكم بعد الكثير من الأمم الكافرة الباغية الّتي أخذتها أخذ عزيزٍ مقتدر حينما لم تغن معها النّذر ولم تنفع الكتب .

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

إنّ ما توعدون أيها المخاطبون لآتٍ لا محالة من بعث وحساب ، ثوابٍ أو عقاب ، جنّةٍ أو نار ، وما أنتم بمعجزين ولافائتين . إنّ الله سبحانه وتعالى قديرٌ على إعادة الحياة إليكم بعد موتكم ، قديرٌ على حمعكم وحسابكم وإدخالكم الجنّة أو النّار : ﴿ ولا يظلم ربّك أحدا ﴾[1]

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

اعملوا على مكانتكم : استمرّوا على طريقتكم وناحيتكم[2]

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لقومه المكذّبين الكافرين : اعملوا على مكانتكم وطريقتكم ، واستمرّوا على حالتكم وناحيتكم إن كنتم تظلّون تعتقدون أنّ الكفر والتّكذيب وعمل السّيّئات وارتكاب الموبقات وقيامكم بكلّ ما نهاكم الله تعالى عن القيام به ، استمرّوا على حالتكم إن كنتم تظلّون تعتقدون أنّكم تسيرون في الطّريق الصّحيح المؤدّي إلى النّجاح وتقومون بالعمل المليح المفضي إلى الفلاح . ومن البيّن أنّ المقصود تحذير الكافرين من الضّلال الأكيد الّذي هم سادرون فيه وإنذارهم بين يدي عذابٍ شديد كي يهجروا طريق الضّلال وكي يعملوا الصّالحات وكي يتأسّوا بالمصطفى ﷺ الّذي يسير بنورٍ من ربّه جلّ وعلا ويعمل ما أمره الله تعالى أن يعمل .

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٨/٢ .

وإنّ الإنذار الّذي يشتمّ من الجزئيّة الكريمة الأولى تكاد تصرّح به الجزئيّة الثّانية : ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدّار ﴾ والمعنى أنّكم يوم القيامة سوف تعلمون علم اليقين من تكون له العاقبة الحسنة لهذه الدّار الأولى والجّنة الّتي ستكون بإذن الله تعالى من نصيب الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات في الدّار الأولى دار الفناء دار العمل للآخرة .

وحينما تكون الجّنة وهي العاقبة الحسنة للدّار الأولى دار العمل للمؤمنين الّذين آمنوا وأحسنوا العمل تكون النّار في المقابل للكافرين الّذين كفروا وأساءوا العمل .

وإنّ الجزئيّة الأخيرة أكثر إفصاحاً بهذه العاقبة الوخيمة في حقّ الكافرين الّذين يوصفون بأنّهم الظّالمون : ﴿ إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ وإنّ أكبر مظاهر الظّلم الإشراك مع الله تعالى غيره ووضع العبادة في غير موضعها وتوجيهها إلى غير مستحقّها . إنّ هؤلاء الظّالمين لا يفلحون ولا ينجحون في الأولى والآخرة .

قَدْ خَسِرَ وَضَلَّ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

وقتلوا أولادهم وحرموا ما رزقهم الله

الآيات (١٣٦ - ١٤٠)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

وجعلوا لله ممّا ذرأ : خلق وبرأ[١] .

من الحرث : من الزّرع والثّمار[٢] .

والأنعام : كانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنّهم يحرّمونه قربةً لله[٣] .

نصيباً : قسماً وجزءاً[٤] .

وهذا لشركائنا : هم أوثانهم بإجماعٍ من أهل التّأويل عليه[٥] .

ساء ما يحكمون : بئس ما يحكمون[٦]

تقدّم الآية الكريمة بعض الأمثلة العمليّة الدّالّة على إشراكهم مع الله تعالى غيره بتزيينٍ من شياطين الجنّ والإنس فتقرّر أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين جعلوا لله تعالى نصيباً وجزءاً ممّا خلق جلّ وعلا من الزّروع والأنعام فقدّموه للضّيفان والمساكين . وجعلوا للأوثان وسدنتها نصيباً آخر وجزءاً فقالوا هذا القسم من الزّروع والأنعام لله تعالى وهذا القسم الآخر لأوثاننا وسدنتها . ما أسوأ هذا الحكم وما أقبح هذا القسم أن يجعل للأوثان نصيباً يتقرّب إليها بتقديمه لها زاعمين أنّهم بهذا القسم والتّقديم للأوثان تقرّبهم إلى الله تعالى زلفى .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣٠/٨ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٣٢/٨ .

(٦) الجلالين .

ووراء هذا السّوء في الحكم والقسم هنالك سوءٌ آخر في عمليّة التّوزيع فما كان للأوثان من زرعٍ أو ثمرٍ مثلاً ينبغي أن يصل إلى الأوثان وحدها ولايصل إلى الله تعالى ، بمعنى أنّ الجزء المخصّص للوثن لو اختلط بالجزء المخصّص للذّات العليّة فيجب أن يعود للوثن ما خصّص له لأنّ الأوثان في زعمهم فقراء . أمّا إذا اختلط الجزء المخصّص للذّات العليّة بالجزء للمخصّص للوثن فلا ضير في زعمهم من ذلك للسّبب ذاته وهي أنّ الأوثان فقراء . بئس حكم القوم وبئس ما يقسمون .

عن ابن عبّاس : إنّ أعداء الله كانوا إذا حرثوا حَرْثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً فما كان من حرثٍ أو ثمرة أو شيءٍ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيءٌ فيما سمّى للصّمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن . وإن سبقهم الماء الذّي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيءٌ من الحرث والثّمرة الّتي جعلوها لله فاختلط بالّذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقيرٌ ولم يردّوه إلى ما جعلوه لله . وإن سبقهم الماء الّذي جعلوه لله فسقى ماسمّي للوثن تركوه للوثن . وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرّمونه قربةً لله فقال الله تعالى : وجعلوا لله . الآية[1]

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

شركاؤهم : شياطينهم[2] .

ليردوهم : ليهلكوهم[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٢/٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣٢/٨ .

وليلبسوا عليهم دينهم : ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس فيضلّوا ويهلكوا بفعلهم ماحرّم الله عليهم[١] .

فذرهم وما يفترون : وما يتقوّلون عليّ من الكذب والزّور فإنيّ لهم بالمرصاد ومن وراء العذاب والعقاب[٢]

تقرر الآية الكريمة أنّه كما زيّن الشّياطين للمشركين أن يجعلوا لله تعالى من الحرث والأنعام نصيباً وللشّركاء نصيباً كذلك زيّن الشّياطين لكثيرٍ من المشركين قتل الأولاد خشية الفقر الواقع فعلاً أو المتوقّع والمنتظر وقد كان نصيب البنات من الوأد هو الأكبر لأنّهنّ يشتركن مع الذّكور في الخوف من الفقر بسببهم ويزدن على الذّكور بخوف آبائهنّ العار بسببهنّ .

وإنّما زين الشّياطين لكثير من المشركين قتل أولادهم ليوقعوا هؤلاء الآباء في الهلاك بقتل النّفس الّتي حرّم الله تعالى قتلها إلّا بالحقّ ، وليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس فيضلّوا ويهلكوا بفعلهم ما حرّم الله تعالى عليهم .

ولّما كان كلّ شيءٍ فى الوجود إنّما يحدث بعلم الله تعالى ومشيئته فإنّ الآية الكريمة بقصد تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه تقول له عليه الصّلاة والسّلام : ولوشاء الله تعالى ألّا يفعلوا ذلك مافعلوه ، ولكنّهم فعلوه بمشيئة الله تعالى وإرادته واختياره لما له جلّ وعلا فى ذلك من الحكمة البالغة[٣] فذرهم يامحمّد وما يفترون ودعهم وما يتقوّلون من كذبٍ وزور ، : « واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم »[٤]

(١) تفسير الطّبريّ ٣٢/٨ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣٢/٨ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ .

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

حِجر : الحجر في كلام العرب الحرام . يقال : حجرت على فلانٍ كذا أي حرّمت عليه . ومنه قول الله : ويقولون حجراً محجورا[١] .

لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم : يقولون : حرامٌ أن يطعم إلاّ من شئنا[٢] قالوا نحتجرها عن النّساء ونجعلها للرّجال[٣] .

وأنعامٌ حرّمت ظهورها : قال السّدّيّ : هي البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام[٤] .

وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها : قال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيءٍ من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملوا شيئاً[٥]

بّينت الآية الكريمة قبل السّابقة أنّ المشركين جعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وللشّياطين نصيباً ، وبيّنت الآية الكريمة التّالية تزيين الشّياطين للمشركين قتل أولادهم خوف الفقر والعار . وهذه الآية الكريمة تبيّن بعض الآثام الّتى زيّنت الشّياطين للمشركين ارتكابها في مجال الأنعام ، الإبل بخاصةّ . إنّ هؤلاء المشركين قالوا بوسوسةٍ من شياطينهم إنّ هذه أنعام وحرث ، إبلٌ وزرع ، حجرٌ وحرام ، لايطعمها إلاّ من يشاءون ولا يأكلها إلاّ من يأذنون له حسب زعمهم وادّعائهم من خَدَمة الأوثان وغيرهم ولا حجّة لهم ولا برهان ، وقالوا أيضاً إنّ هذه الأنعام من بحيرةٍ وسائبةٍ ووصيلة وحام حرّمت ظهورها فلا يحلّ ركوبها بحال من الأحوال ، وقالوا أيضاً إنّ هذه أنعامٌ لا نذكر اسم الله عليها افتراءً على الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٤/٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣٤/٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ وانظر تفسير الطّبريّ ٣٥/٨ .

وإنّ هذه إبلٌ لا نذكر اسم الله عليها في أيّ شأنٍ من شئونها لا إنّ ركبناها ولا إن حلبناها ولا إن حملنا عليها ولا إن قمنا عليها بأيّ عمل من الأعمال .

ولما كانت كلّ هذه الأقوال والأفعال كذباً على الله تعالى وأموراً ما أنزل الله تعالى بها من سلطان فقد وصفت بأنّها افتراءٌ على الله تعالى وكذبٌ وادّعاء وسيجزيهم الله تعالى يوم القيامة بما كانوا يفترون على الله تعالى الكذب .

ولمّا كانت السّين تدلّ على المستقبل القريب فإنّها في القول : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ تدلّ على قرب تحقّق العذاب لأنّ كلّ آت قريبٌ وإن كان بعيدا بالقياس لنا نحن البشر وقد قال تعالى[1] : ﴿ إنّهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا ﴾

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ممّا أوحى شياطين الجنّ للمشركين قولهم ما في بطون هذه الأنعام من لبنٍ وأجنّة خالصةٌ لذكورنا ومحرّمٌ على إناثنا . أمّا اللّبن فكانوا يحرّمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم روي هذا عن ابن عبّاس[2] وأمّا الأجنّة فقد روى عن ابن عبّاس أيضاً أنّ الشّاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرّجال دون النّساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وأن كانت ميتةً فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك[3] وقال مجاهد : هي السّائبة والبحيرة[4]

ولمّا كان كلّ هذا القول من قبيل الكذب والافتراء على الله تعالى فقد جاء التّهديد الفوريّ للقوم والوعيد : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي قولهم الكذب في ذلك كقوله تعالى :

---

(١) سورة المعارج ٦ ، ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٦/٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٦/٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٦/٨ .

﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهـذا حرامٌ لتفتـروا على الله الكـذب . إنّ الّذين يفترون على الله الكـذب لا يفلحـون ﴾[1] إنّـه جلّ وعـلا ﴿ حكيم ﴾ في أفعالـه وأقواله وشرعه وقدره ﴿عليم ﴾ بأعمال عباده من خيرٍ وشرّ وسيجـزيهم عليها أتـمّ الجزاء[2]

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

كلّ آيـة كريمةٍ من آيـات هذا الـقسم أصدرت الحكـم الّـذي يستحقّـه الكافـرون المفترون على الله تعالى الكذب الّذين قتلوا أولادهم . وهذه الآية الكريمة تصدر حكماً عامًّـا على كلّ أباطيل القوم وضلالاتهم وتوجزهـا فى خطأيـن كبيريـن قتـل الأولاد وتحريم مارزق الله تعالى .

إنّ الآية الكريمة تصدر حكمين اثنين في حقّ الكافرين مصدَّرين مرّتين اثنـتين بحرف التّحقيق : « قد » وبما أنّ الآية الكريمة جمعت ضلالات القوم في ضلالين اثنين ففي إمكاننا أن نذهب إلى أنّ كلاًّ من الحكـمين متعلّـــق بأحـــد الضّلالين وأن نذهب كذلك إلى أنّ الأوّل للأوّل والثّاني للثّاني .

إنّ الآية الكريمة تقرّر خسران الّذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وجهلًا وطيشاً ونزقاً بغير حلم خوفاً من الفقر الواقع أو المتوهّم ودفعاً للعار المتوهّم . لقد خسر القـوم فى الدّنيـا والآخرة . خسروا في الدّنيا بناتهم وأولادهـم وخسروا الآخرة لأنّ الله سبحانـه وتعـالى محاسبهم ومجازيهم . لقد خسر القوم بسبب سفههم وقلّة حلومهم وعدم عقولهم .

وإنّ القوم قد ضلّوا عن سواء السّبيل وما كانوا مهتدين بحالٍ من الأحوال حينما افتـروا على الله تعالى كذبـاً فحرّمـوا مارزقهـم الله تعـالى افتـراء على الله الكـذب وتخرّصاً عليـه جلّ وعلا . ومن البيّن أنّ كلا الحكـمين وراء ذلك منسحبـان على كلا الخطأيـن فثمّـة خسران وضلالٌ بسبب قتل الأولاد . وثمّة ضلالٌ وخسران بسبب الافتراء على الله .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٨٠ .

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين والمائة من سورة الأنعام : ﴿ قد خسر الّذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ وهكذا رواه البخاريّ منفرداً في كتاب مناقب قريش من صحيحه[1]

(١) تفسير ابن كثير ١٨١/٢ .

الله تعالى خالق الجنّات والأنعام
وله وحده حق التحريم علينا وعلى الذين من قبلنا
الآيات (١٤١ - ١٤٧)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وهو الّذي أنشأ : أحدث وابتدع[١] وخلق[٢] .

جنّات : بساتين[٣] .

معروشات وغير معروشات : العَرْش فى الأصل شيءٌ مسقَف ، وجمعه عروش ، قال : وهي خاويةٌ على عروشها ، ومنه قيل : عَرَشت الكَرْم وعرَّشته إذا جعلتَ له كهيئة سقف ، وقد يقال لذلك المعرَّش . واعترش العنب ركّب عرشه[٤] معروشات وهي ما عرش النّاس من الكروم . وغير معروشات ، غير مرفوعات مبنيّات لا ينبته النّاس ولا يرفعونه ولكنّ الله يرفعه وينبته وينمّيه[٥] عن ابن عبّاس : المعروشات ماعرش النّاس وغير معروشات ما خرج فى البرّ والجبال من الثّمرات[٦] .

والزرع : في الأصل مصدر وعبّر به عن المزروع . والزّرع الإنبات وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهيّة دون البشريّة[٧] .

مختلفاً أكله : يعنى بالأكل الثّمر . يقول : وخلق النّخل والزّرع مختلفاً ما يخرج منه ممّا يؤكل من الثّمر والحبّ[٨] والأُكُل لما يؤكل بضمّ الكاف وسكونه[٩] والزّيتون والرّمّان متشابهاً وغير متشابه : عن ابن جريج قال : متشابهاً فى المنظر وغير متشابه فى الطّعم[١٠] .

كلوا من ثمره إذا أثمر : عن محمّد بن كعب قال : من رطبه وعنبه[١١] يقول : كلوا من رطبه ما كان رطباً ثمره[١٢] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ والجلالين .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني « عرش » ٣٢٩ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني « زرع » ٢١٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني « أكل » ٢٠ .
(١٠) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(١١) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(١٢) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .

وآتوا حقّه يوم حصاده : عن ابن عبّاس قال : العشر ونصف العشر[1] وعن ابن عبّاس يعني الزّكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله . وكذا قال سعيد بن المسيّب[2] عن قتادة : ذكر لنا أنّ نبيّ الله ﷺ سنّ فيما سقت السّماء أو العين السّائحة أو سقاه الطّلّ والطّلّ النّدى أو كان بعلًا[3] العشر كاملًا . وإنّ سُقِي بِرِشاء نصف العشر . قال قتادة : وهذا فيما يكال من الثّمرة وكان هذا إذا بلغت الثّمرة خمسة أوسق وذلك ثلاثمائة صاع فقد حقّ فيها الزّكاة . وكانوا يستحبون أن يعطوا ممّا لا يكال من الثّمرة على قدر ذلك[4] وكان تفصيل الزّكاة وبيان مقدار المخرج وكمّيّته في السّنة الثّانية من الهجرة[5] .

ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين : قيل معناه لا تسرفوا في الاعطاء فتعطوا فوق المعروف . وقال أبو العاليه : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ثمّ تباروا فيه وأسرفوا فأنزل الله : ولا تسرفوا . وقال ابن جريج : نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس جذّ نخلاً له فقال : لا يأتيني اليوم أحدٌ ألاّ أطعمته فأطعم حتّى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله تعالى : ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . رواه ابن جرير عنه[6] ويعلّق ابن كثير[7] : « ثم اختار ابن جرير قول عطاء إنّه نهيٌ عن الاسراف في كلّ شيء . ولاشكّ أنّه صحيح لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى : كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا ، أن يكون عائداً على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرّة العقل والبدن كقوله تعالى : كلوا واشربوا ولا تسرفوا . الآية . وفي صحيح البخاريّ تعليقاً : كلوا واشربوا والبسوا من غير إسرافٍ ولا مخِيلة ، وهذا من هذا والله أعلم »

تبيّن من آيات القسم السّابق أنّ الشّياطين وسوسوا لأوليائهم أن يجعلوا لله ممّا ذرأ من الزّرع والأنعام نصيبا ولآلهتهم المزعومة نصيباً وأنّ امتثالهم ذلك من أسباب خسرانهم وضلالهم ، لأنّهم أشركوا مع الله تعالى غيره . وهذه الآية الكريمة الأولى الّتي نحن بصددها

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٨١ وتفسير الطّبريّ ٨/٨٠ .

(٣) البعل من الأرض ما سقته السّماء ولم يُسْق بماء الينابيع .

(٤) تفسير الطّبريّ ٨/٤٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/١٨٢ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢/١٨٢ وانظر تفسير الطّبريّ ٨/٤٥ ، ٤٦ .

(٧) تفسير ابن كثير ٢/١٨٢ .

تبيّـن أنّ لله تعـالى وحـده لا شريك له الخلـق فينبغـي تبعـاً أن يكـون له جلّ وعـلا وحـده لا شريك له الأمر .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّـذي أنشأ جنّـات معـروشاتٍ وغير معروشات ، وهو الّذي أوجد وأبدع بساتين منها ماهـو معـروش ومرفـوعٌ على العـروش الّتـي يعملها الإنسان كالأعناب ولها دورٌ كبير في جَنّ الحديقة وتغطيـة الجنّـة والبستـان ، وبسبب السّتر والتّغطية أطلقت لفظة جنّة على الحديقة والبستان ، ومنها ماهـو غير معـروش ومرفـوع بتدخّل الإنسان ولكنّه قائمٌ على سوقه بإرادة الذّات العليّة . وحينما يكون ورق العنب عريضا بطبعه وكانت الجنّات غير المعروشات تعتمد الشّجر أساساً ، فذلك معناه أنّنا بصدد نوعين من النّبات قصيرٍ عاجزٍ بطبعه يستعين بالعروش وطويلٍ مقتدرٍ بطبعه مستغنٍ عن العـروش . ولّما كانت النّخلة رفيعة المنزلة لدى العرب وفى جزيرتهم فهي بمثابة الأمّ لهم وهم الّذيـن نزل القرآن الكريم بلسانهم لذا كان حديثٌ خاصٌّ عن النّخل . والمعـروف أنّ النّخـل من جنس الشّجر ، وعليه نكون بصدد نوعين من النّبات طويلين فبقي النّوع الآخر المائل إلى الـقصر غير البعيد في الارتفاع عن الأعناب المعروشات كي نكون بصدد نوعين قصيريـن من النّبـات على غرار الطّويلين ، وقد تحقّق ذلك في الزّرع الّذي يستطيـع أن يملأ الفـراغ البـاقي . وبهذا نكون بصدد أعنابٍ معروشات وأشجار ونخيلٍ وزرع . ونستطيع أن نفهم أنّ هذه العنـاصر الأربعة تغطّي كلّ أنواع النّبات ولهذا جاء النصّ على اختـلاف أكل هذه الأصنـاف وثمرهـا . ويدخل في هذه الأصناف الأربعة الزّيتون والرّمّـان فهمـا من الجنّـات غير المعـروشات لأنّهمـا من جنس الشّجر وهما من الزّرع كذلك لأنّ من الجنّات غير المعروشات مايفوقهمـا ارتفاعـاً وضخامة . وإنّما كان النّصّ على الزّيتون والرّمّان بسبب عجيبـة التّشابـه في الشّكـل وعـدم التّشابه في الطّعم فما أصغر الزّيتون بالقيـاس إلى الرّمّـان ومـا أبعـد الزّيتـون في الشّكـل عن الرّمّـان وإن تشابهت الورقـة والشّجـرة فيهمـا . وكان الـنّصّ على الزّيتـون والرّمّـان وراء ذلك بسبب قيمتهما الغذائيّة ورفيع منزلتهما عند العرب وغير العرب . ويلاحظ أنّ الزّيتـون أقـرب إلى كونه غذاءً رئيسيّاً وأنّ الرّمّان أقرب إلى كونه فاكهةٍ . ونستطيع أن نفهم تغطية العنـاصر المذكورة في الآية الكريمة لجنس النّبات بالنظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة الكهف . قال تعالى[1] : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعنـابٍ وحففنـاهما بنخـلٍ

(١) سورة الكهف ٣٢ .

وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ العنب عماد الجّنة وأنّ النّحل سياج الجّنة . وأنّ الزّرع بينهما ويلحق بذلك غير المعروش من النبات .

أما وقد جاء النّصّ على أكل الجّنة وهو بشأن المعروشات العنب وبشأن النّخل التّمر والرّطب ويلحق بذلك الزّيتون والرّمّان وسائر الأكل ما كان من قبيل الغذاء الرّئيسيّ أو الفاكهة أما وقد جاء النّصّ على الأكل فقد جاء الأمر بعدم نسيان الإنسان حقّه وعدم نسيان الإنسان حقّ الله تعالى مع النّهي عن الإسراف في الأكل والإسراف في الصّدقة . إنّ الآية الكريمة تأمر عباد الله تعالى أن يأكلوا من رطبه وعنبه وجميع ثمره الطّيّب ، وأن يدفعوا زكاة الثّمار يوم حصاده ويوم يكال ويعلم كيله : « عن ابن عبّاس في قوله : وآتوا حقّه يوم حصاده ، قال : العشر ونصف العشر »[1] فالعشر لما سقته السّماء دون جهدٍ ونصف العشر لما سقاه الإنسان بجهد . فإن كان يُسّقى تارةً بآلة وتارةً بدونها ، فإن كان ذلك على جهة الاستواء ففيه ثلاثة أرباع العشر[2] شريطة بلوغ النّصاب وهو خمسة أوسق والوسق ستّون صاعاً بالإجماع ، والصّاع قدحٌ وثلث[3]

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ المسرفين .

ولّما كان الإسراف في الأكل أمراً مرغوباً عنه لدى كلّ الحكماء ، وليس كذلك الإسراف في الصّدقة فقد تصّدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بكلّ ماله وله في المصطفى ﷺ أسوةٌ حسنة ، لهذا نحن أشدّ ميلًا إلى الرّأي الذّي يذهب إلى أنّ النّهي عن الإسراف ينصرف إلى الأكل بأكثر من انصرافه إلى الصّدقة رغم تقدّم الأمر بالأكل وتأخّر النهّي عن الإسراف . وإنّ تأخّر النّهي عن الإسراف وتقدّم الأمر بإيتاء حقّ الثّمر يوم حصاده معناه أنّ النّهي عن الإسراف له حظّه وإن كان ضئيلاً من الأمر بإيتاء الزّكاة بسبب القرب والجوار . والله أعلم .

جاء في سورة الأعراف[4] قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٩/٨ .

(٢) فقه السّنّة ٣٠٠/١ .

(٣) انظر فقه السّنّة ٢٩٨/١ ، ٢٩٩ .

(٤) الآية ٣١ .

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

الحمولة بفتح الحاء : مايَحْمِل[1] وهي جمعٌ لا واحد لها من لفظها كالرّكوبة والجزورة[2] .

والفرش . بسط الثّياب ، ويقال للمفروش فَرْشٌ وفِراش[3] قال ابن زيد : الحمولة ما تركبون . والفرش ما تأكلون وتحلبون ، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتّخذون من أصوافها لحافاً وفرشاً[4] .

من المعروف أنّ الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ، ومن المعروف كذلك انّ من الأنعام ما يُتَّخَذُ رَكوباً كالإبل وأنّها يؤخذ منها في حياتها اللّبن ابتداءً ، وأنّها يؤخذ منها بعد ذبحها اللّحم ابتداءً ، وأنّ من شعر المعْز وصوف الضّأن ووبر الإبل تُتَّخذ الفُرُش والثّياب والبيوت وكذلك من الجلود وهكذا . وحينما تنصّ الآية الكريمة على الحمولة وهي تعني ما يُحْمَلَ عليه من الأنعام أي من الإبل وذلك بحمل الأثقال عليه وباتّخاذه رَكوبا ، وحينما تنصّ الآية الكريمة على الفرش ، وهو يعني اتّخاذ الفَرْش من الأنعام عموماً أي الفِراش الّذي يصنع من الشّعر والوبر والصّوف الّذي يجتزّ من الأنعام في حال حياتها أو بعد مماتها يكون معنى ذلك أنّ الآية الكريمة تحدّثت عن منفعتين عظميين للأنعام في حقّ الإنسان ، الأولي في حال حياة الأنعام وذلك باتخاذها حمولةً ورَكوبا ، والأخري في حال حياة الأنعام أو بعد مماتها وذلك باتّخاذ الأشعار والأوبار والأصواف المنفصلة عنها فِراشاً . ومن البيّن أنّ لفظة حمولة تشمل مايُحْمل على الإبل من الإشياء ومن الأشخاص كذلك ، فالحمل على الأنعام نفعٌ عظيمٌ منها يحصل الإنسان عليه ، ومن البيّن كذلك أنّ لفظة فرشاً بالمعنى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « حمل » ١٣٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٤٨/٨ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني « فرش » ٣٧٥ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٤٧/٨ .

الذّي عرفنا تعتبر رمزاً لمجموعةٍ من المنافع مترابطة يحصل عليها الإنسان من الأنعام كاتّخاذ الفرش من الأشعار والأوبار والأصواف والجلود وغير مترابطة كشرب اللّبن وأكل اللّحم والحصول على العديد من المنافع منها والفوائد ، من عظمها وظِلْفها وما أشبه ذلك . وكأن الآية الكريمة بالنّصّ على هاتين المنفعتين العظميين من الأنعام تنبّه الحسّ إلي غيرهما من المنافع .

وممّا جاء في منافع الأنعام قوله تعالى في سورة النّحل[1] : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس . إنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم ﴾ وقولهُ تعالى[2] : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلي حين ﴾

ومعنى القول : ﴿ ومن الأنعام حمولةً وفرشا ﴾ وأنشأ من الأنعام حمولةً وفرشا .

وتأمرنا الآية الكريمة أن نأكل ممّا رزقنا الله تعالى من الحلال غير الحرام الطّيّب غير الخبيث وألّا نتّبع خطوات الشّيطان الرّجيم العدوّ المبين الّذي يقودنا إلى مهاوي الرّدى ومن هذه المهاوي أن نتّبع خطوات اللّعين بتحريم ما أحلّ الله تعالى لنا كما فعل مشركو العرب بحقّ الأنعام ، وبتحليل ما حرّم الله تعالى علينا ونصّ على تحريمه القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تبيّنان الحمولة والفرش .

---

(١) الآيات ٥ ــ ٧ .

(٢) سورة النّحل ٨٠ .

ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ
قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ
أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ
أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى أنشأ من الأنعام حمولةً وفرشاً ، وإنّ القول هنا : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ بدل من : ﴿ حمولةً وفرشا ﴾ : « كأنّ معنى الكلام : ومن الأنعام أنشأ ثمانية أزواج »[1] والمراد بالأزواج الأصناف[2] والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى أنشأ وخلق ، أوجد وأبدع ثمانية أصناف وأزواج ، من الضّأن اثنين ، الذّكر والأنثى ، وهما يميلان إلى البياض ، ومن المعز اثنين ، الذّكر والأنثى ، وهما يميلان إلى السّواد . ومع أنّ الزّوج هنا بمعنى الصّنف إلّا أنّ مجيء لفظ الزّوج يوحي بأنّ هذا الصّنف أو ذاك ينظر إليه باعتبار رفيقه وقرينه وباعتباره شقّاً لآخر وزوجاً له . فالذّكر زوجٌ للأنثى والأنثى زوجٌ للذّكر ، يلاحظ هذا ويراعي في حقّ الأزواج الثّمانية أو الأجناس الأربعة الضّأن والمعز والإبل والبقر .

ولّما كان المشركون قد تورّطوا بدون علمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ منير في تحليل ما حرّم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٤٨/٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٣/٢ والجلالين .

الله تعالى وتحريم ماأحّل الله تعالى بشأن الأنعام ، فإنّ هذه الآية الكريمة الأولى تسأل المشركين في أسلوب الإنكار بواسطة المصطفى ﷺ : ﴿ قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ والمعنى قل يامحمّد لهؤلاء الّذين بلغت بهم الجراءة إلى الحدّ الّذي حرّموا معه ما أحلّ الله تعالى : آلذّكرين حرّم الله تعالى من الضّأن والمعز أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين معاً الذّكرين والأنثيين ؟

إنّ المشركين ليس لديهم أيّ جواب على هذا السّؤال ذي الثلاث الشّعب لأنّهم إذا حرّموا من الصّنف شيئاً أحلّوا من الآخر شيئاً وبالتّالي فإنّ أيّ جوابٍ يقدّمون يقعون معه في التّناقض .

والآية الكريمة في القول : ﴿ نبّئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين ﴾ تشير إلى المصدر الّذي اعتمده القوم في التحليل والتّحريم وإلى الأساس الأقرب احتمالاً وهو العلم الصّحيح الّذي يصل إليهم سليماً عبر قنواته الصّحيحة . والمعنى : أخبروني أيّها المشركون بعلمٍ صحيحٍ موثوقٍ به في هذا التّحريم إن كنتم صادقين في زعمكم أنّ الله سبحانه وتعالى حرّم هذا .

وعلى غرار الآية الكريمة الأولى تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي أنشأ وخلق من الإبل اثنين ، ذكراً وأنثى ، ومن البقر اثنين ذكراً وأنثى . وإنّ لسان الحال هنا هو لسان الحال هنالك : إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذي له الخلق والأمر فهو جلّ وعلا مصدر التّشريع والتّحليل والتّحريم .

وعلى غرار السّؤال الّذي طُرِح على المشركين بواسطة المصطفى ﷺ والّذي ليس لديهم الجواب عليه يطرح عليهم السّؤال الآخر المتعلّق هذه المرّة بالإبل والبقر : ﴿ قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾

ولّما كان الّذي يطبّق حكماً صحيحاً إنّما يستند إلى علمٍ صحيح ، وليس لدى المشركين علمٌ صحيح ، فهل معنى تطبيق المشركين هذه الأحكام أنّهم كانوا شهداء وحاضرين أذ وصّاهم الله بهذا وأمرهم بتحريم ما حرّموا من الأنعام ؟ وكيف يكون المشركون حاضرين وأحياء آنذاك . وبهذا يتبيّن أنّ المراد بطرح هذا السّؤال : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ تعطيل الطّريق الآخر الأصعب منالاً الّذي يصحّ أن يأتي الكافرين منه العلم . ولّما كان الطّريق الأسهل وهو العلم الصّحيح يجهله القوم فكيف بالطّريق الآخر الأصعب بل المستحيل .

أما وقد عجز المشركون عن الإجابة على كلٍّ من السّؤالين الوحيدين اللّذين يصحّان أن يطرحا ويجاب عليهما والمتعلّقين بطريقي العلم الصّحيح السّند الصّحيح الحامل للمتن الصّحيح أو الوحى فقد ثبت كذب القوم وضلالهم وصدّهم عن السّبيل . وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضلّ النّاس بغير علم ﴾ والمعنى لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذباً فحرّم ما أحلّ الله تعالى وأحلّ ماحرّم الله تعالى وليس لديه علمٌ صحيحٌ مصدره النّقل الصّحيح أو الوحى وإنّما يريد أن يضلّ النّاس بغير علمٍ ولا هديً ولا كتابٍ منير .

ولّما كان الّذي يضلّ ويصرّ علي الضّلالة ويعرض عن آيات الله تعالى يزيده الله تعالى ضلالاً إلي ضلال وعمىً إلي عمىً فإنّ الآية الكريمة في تذييلها تقرّر هذه الحقيقة : ﴿ إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدي القوم الظّالمين الّذين يضعون الأمور في غير مواضعها وفي المقدّمة العبادة الّتي يتعلّق بها الحلال والحرام . إنّ الله تعالى وحده لا شريك له له الخلق والأمر جلّ وعلا .

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

قل لا أجد فيما أوحي إليّ : من كتابه وآي تنزيله[1]

محرّماً : شيئاً محرّما[2]

على طاعمٍ يطعمه : على آكلٍ يأكله ممّا تذكرون أنّه حرّمه من هذه الأنعام الّتي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها بزعمكم[3]

إلّا أن يكون ميته : قد ماتت بغير تذكية[4]

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٥١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨/٥١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٥١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٨/٥١ .

أو دماً مسفوحاً : وهو المنصبّ[١] عن ابن عبّاس : يعني المهراق[٢] يقال منه : سفحت دمه إذا أرقته أسفحه سفحاً فهو دمٌ مسفوح[٣] عن عكرمة : أو دماً مسفوحاً ، قال : لولا هذه الآية لتتبّع المسلمون من العروق ما تتبّعت اليهود[٤] وقال قتادة : حرم من الدّماء ما كان مسفوحاً فأمّا اللّحم خالطه الدّم فلا بأس به[٥] قال رسول الله ﷺ : أحلّ لنا ميتتان ودمان . فأمّا الميتتان فالسّمك والجراد وأمّا الدّمان فالكبد والطِّحال[٦]

أو لحم خنزير : يعني إنسيّه ووحشيّه . واللّحم يعمّ جميع أجزائه حتّى الشّحم[٧] فإنّه رجس : حرام[٨] ونجس ونتن[٩]

أو فسقاً أهلّ لغير الله به : أو إلّا أن يكون فسقاً ، أي خروجاً عن طاعته[١٠] ذُبِح على اسم غيره جلّ وعلا وذُكر عليه غير اسمه تعالى عند الذّبح . والإهلال رفع الصّوت عند رؤية الهلال ثمّ استُعْمِل لكلّ صوت وبه شُبّه إهلال الصّبيّ وقوله : وما أهلّ به لغير الله ، أي ماذُكِر عليه غيرُ اسم الله وهو ما كان يُذْبَح لأجل الأصنام[١١]

ردّاً على مشركي العرب الّذين حرّموا من الأنعام ما أوحت إليهم به شياطينهم وتكذيباً لأولئك الّذين يفترون على الله تعالى الكذب تقرّر الآية الكريمة وجه الحقّ في هذه المسألة وتبيّن اعتداء القوم وظلمهم وضلالهم فتأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المفترين على الله تعالى الكذب لا أجد فيما أوحى الله تعالى إليّ من قرآنٍ كريم وآياتٍ بيّنات محرّماً على طاعمٍ يطعمه وآكلٍ يأكله من الأنعام إلاّ أن يكون ميتةً قد ماتت حتف أنفها دون تذكية ، أي دون ذبح ، وألاّ أن يكون دماً مسفوحاً سائلاً منصبّاً مهراقاً بخلاف غير المسفوح كالكبد والطِّحال وبخلاف المخالط للّحم فإنّه حلال ، وإلّا أن يكون لحم خنزير إنسيّ أو وحشيّ ، ويلحق بلحم الخنزير سائر أجزائه ، وإنّما كان النّصّ على اللّحم لأنّه الأقرب تناولاً . وتوصف هذه المحرّمات بأنّها رجسٌ وحرام ، نَجَسٌ ونتن ، وإلّا أن يكون فسقاً

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٥١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٨٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٥٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨/٥٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/١٨٤ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٧ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٧ .
(٨) الجلالين .
(٩) تفسير الطّبريّ ٨/٥٣ .
(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهاني « فسق » ٣٨٠ .
(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « هلل » ٥٤٤ .

وخروجاً عن طاعته جلّ وعلا بأن يكون المذبوح ذُكر عليه غير اسم الله تعالى وهو ما كان يُذْبح لأجل الأصنام .

وبما أنّ الله سبحانه وتعالى أراد بنا اليُسْر وليس العسر فإنّ الآية الكريمة في تذييلها تقرّر أنّ من اضطرّ لأكل شيءٍ من هذه المحرّمات غير باغٍ في أكله إيّاه تلذّذاً ولا عادٍ في أكله بتجاوزه ما حدّه الله وأباحه له من أكله فلا حرج عليه ولا إثم . وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذي لحق به ضمير المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ : ﴿ فإنّ ربّك غفورٌ رحيم ﴾ ففي ذلك التّنويه برفيع منزلة المصطفى ﷺ والمعنى فإنّ ربّك يامحمّد غفورٌ لمن أكل في حدود الضّرورة رحيم بإباحته أكل تلك المحرّمات ساعة الضّرورة .

والمعروف أنّ الآية الكريمة الثّالثة من سورة المائدة أشمل في المحرّمات ويعلّق ابن كثير[1] بالقول :« فعلى هذا يكون ما ورد من التّحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية . ومن النّاس من يسميّ هذا نسخاً ، والأكثرون من المتأخّرين لا يسمّونه نسخاً لأنّه من باب رفع مباح الأصل . والله أعلم »

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

على الّذين هادوا : وعلى اليهود[2]

حرّمنا كلّ ظفر : الظّفر يقال في الإنسان وفي غيره . قال : كلّ ذي ظفر ، أي ذي مخالب ويعبّر عن السّلاح به تشبيهاً بظُفُر الطّائر إذ هو له بمنزلة السّلاح[3] وهو من البهائم والطّير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنّعام والإوَزّ والبطّ[4] عن ابن عباس هو

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨٣/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥٣/٨ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني « ظفر » ٣١٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥٤/٨ .

البعير والنّعامة[١] ونحو ذلك من الدّوابّ[٢] عن سعيد(بن جبير) قال : هو الّذي ليس بمنفرج الأصابع[٣] ومنه الدّيك[٤] عن قتادة : البعير والنّعامة وأشباهه من الطّير والحيتان[٥] عن قتادة قال : الإبل والنّعام . ظُفُرٌ يد البعير ورجله . والنّعام أيضاً كذلك . وحرّم عليهم أيضاً من الطّير البطّ وشبهه وكلّ شيءٍ ليس بمشقوق الأصابع[٦] عن مجاهد : والدّجاج والعصافير تأكلها اليهود لأنّها قد فرجت[٧] ولا تأكل الإبل ولا النّعام ولا الوزّين ولا كلّ شيءٍ لم تنفرج قائمته وكذلك لا تأكل حمار وحش[٨] .

ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما : قال السّدّيّ : يَعْني الثَّرْب ، وهو شحم قد غَشِيَ الكَرِش والأمعاء رقيق ، وشحم الكُلْيتين وكانت اليهود تقول : إنّه حرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه ، وكذا قال ابن زيد[٩] روى البخاريّ ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود حرّمت عليهم الشّحوم فباعوها وأكلوا ثمنها[١٠] .

إلاّ ما حملت ظهورهما : عن ابن عبّاس يعني ما علق بالظهر من الشّحوم[١١]

أو الحوايا : قال أبو جعفر : والحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويّة وهي ما تحوّي من البطن فاجتمع واستدار وهي بنات اللّبن وهي المباعر وتسمّى المرابض وفيها الأمعاء[١٢] والمعنى أو ما حملت الحوايا[١٣]

أو ما اختلط بعظم : شحم الأَلية والجنب وما أشبه ذلك[١٤]

ذلك جزيناهم ببغيهم : فهذا الّذي حرّمنا على الّذين هادوا من الأنعام والطّير ذوات الأظافير غير المنفرجة ومن البقر والغنم ما حرّمنا عليهم من شحومهما الّذي ذكرنا في هذه الآية حرّمناه عليهم عقوبة منّا لهم وثواباً على أعمالهم السّيّئة وبغيهم على ربّهم[١٥]

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٨/٥٤ .
(٩) تفسير ابن كثير ٢/١٨٥ وتفسير الطّبريّ ٨/٥٥ .
(١٠) تفسير ابن كثير ٢/١٨٥ وتفسير الطّبريّ ٨/٥٥ .
(١١) تفسير ابن كثير ٢/١٨٥ وتفسير الطّبريّ ٨/٥٥ .
(١٢) تفسير الطّبريّ ٨/٥٥ .
(١٣) تفسير الطّبريّ ٨/٥٥ .
(١٤) تفسير الطّبريّ ٨/٥٦ .
(١٥) تفسير الطّبريّ ٨/٥٦ .

وإنّا لصادقون : وإنّا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عمّا حرّمنا عليهم من الشّحوم ولحوم الأنعام والطّير الّتي ذكرنا أنّا حرّمنا عليهم وفي غير ذلك من أخبارنا وهم الكاذبون في زعمهم أنّ ذلك إنّما حرّمه إسرائيل على نفسه وأنّهم إنّما حرّموه لتحريم إسرائيل إيّاه على نفسه[1]

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على اليهود ما كان حلالاً من الأنعام بسبب بغيهم وطغيانهم وأنّ اليهود يكذبون حينما يزعمون أنّ يعقوب عليه السّلام ، وهو إسرائيل عليه السّلام ، قد حرّم على نفسه هذه الأشياء وأنّهم حرّموها على أنفسهم تبعاً له عليه السّلام . إنّه بسبب ظلم اليهود وبغيهم حرّم الله سبحانه وتعالى عليهم من البهائم والطّير كلّ ذي ظفر . والمراد بالظّفر المخلب ، بكسر الميم ، وهو للطّائر والسّباع كالظّفر للإنسان . ولّما كان المراد بذي الظّفر هنا ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطّير ، ولمّا كان الظّفر وسيلة دفاع الحيوان عن نفسه فهو بمنزلة المِخْلَب ، ولمّا كان الحيوان غير ذي الظّفر كالبعير غَيْرَ مشقوق الأصابع ويستعمل خفّه في الدّفاع عن نفسه استعمال ذوات الأظافير أظافيرها فإنّا نستطيع أن نفهم أنّ لفظ الظّفر اتّسع استعماله في الآية الكريمة فشمل غير ذوات الظّفر لتحقّق صفتي الظُّفْر ، الالتئام والدّفاع بها .

إنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على اليهود ما ليس بمشقوق الأصابع من البهائم والطّير كالإبل والنّعام والإوَزّ والبطّ ، وحرّم عليهم من البقر والغنم شحومهما إلّا مَا حملت ظهور البقر والغنم وجنوبهما من الشّحم وما حملت الأمعاء من الشّحم وما اختلط من الشّحم بعظم وهو شحم الأَلْية والجنب وما أشبه ذلك . لقد حرّم الله تعالى على اليهود من البقر والغنم الشّحم الّذي غَشِيَ الكَرِش والأمعاء وشحم الكُلْيتين وأحلّ لهم من الشحم ما استثنت الآية الكريمة .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ ذلك التحريم كان من الله تعالى جزاءً وفاق بغي اليهود وطغيانهم ، كما تقرّر أنّ هذا هو القصص الحقّ وهو النّبأ الصّدق وليس كما يزعم اليهود أنّ الّذي حرّم ذلك إسرائيل عليه السّلام وأنّهم اتّبعوه فحرّموا ما حرّم عليه السّلام على نفسه .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٥٦ .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

كلّ مؤمنٍ حينما يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى قد قال شيئاً لرسوله ﷺ عن طريق الوحي يقول : صدق الله العظيم . وقد كان هذا الموقف هو المنتظر من اليهود والمشركين وأن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين ولكنّ هؤلاء وأولئك أصرّوا على زعمهم وفي ذلك تكذيبٌ للمصطفى ﷺ . والآية الكريمة تقول للمصطفى ﷺ فإن كذّبك مشركو العرب وكافرو يهود فقل لهم ربّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ فعليكم أن تنتفعوا من فرصة الإمهال ومن لطف الله تعالى بكم إذ لم يعاجلكم العقوبة ومن رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ بأن تتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين تؤمنون بالله تعالى ربّاً وبمحمدٍ ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً وإلا كان الانتقام شديداً والعذاب أليماً فإن بأس الله تعالى لا يردّ عن القوم المجرمين أمثالكم .

المشركون يتّبعون الظّنّ ولله الحجّة البالغة
وبيان ما حرّم الله علينا وأمرنا باتّباعه واجتنابه
الآيات (١٤٨ - ١٥٣)

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

إنّ مشركي العرب الّذين يُسْألون عن الأسس الّتي اعتمدوها في تحريم ما أحلّ الله تعالى من الأنعام حينما توصد أمامهم السّبل يفرّون إلى القول إنّ أشراكنا مع الله تعالى فى العبادة غيره وإشراك آبائنا وإنّ تحريمنا الأنعام والحرث وما إليهما بمشيئة الله تعالى وإرادته ، بعلمه جلّ وعلا ورضاه : ﴿ قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾[1] وهكذا يكذب مشركو العرب على الله تعالى كما كذب المشركون السّابقون وسيذوق مشركو العرب بأس الله تعالى وعذابه كما ذاق السّابقون في الدّنيا والآخرة .

وإلزاماً لمشركي العرب الحجّة وتنبيهاً لاستحقاقهم العذاب إن لم يسلموا لله ربّ العالمين تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يسأل المشركين : هل عندكم من علمٍ صحيحٍ اعتمدتموه فيما حرّمتم من الأنعام والحرث فتخرجوه لنا وفيما زعمتم من رضا الله تعالى عن شرككم وتحريمكم . وكيف يكون لدى القوم على الشّرك دليل وعلى التّحريم حجّة لذا فإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ القوم ما يتّبعون إلّا الظّنّ الّذي لا يغنى من الحقّ شيئاً وإن هم إلاّ يكذبون .

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

تبيّن من الآية الكريمة السّابقة أنّ المشركين كاذبون وليسوا صادقين وأنّهم يعتمدون

---

(١) سورة الأعراف ٢٨ .

الظّنّ وإنّ الظّنّ لا يغني من الحق شيئاً وأنّهم ليس لديهم أثارةٌ من علم صحيح ولا بقيّة من كتابٍ صادق . وإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تقدم البديل الصحيح وتعرض العلم الصّادق بل الحجّة البالغة والحكمة التّامّة : « ويعني بالبالغة أنّها تبلغ مراده في ثبوتها على من احتجّ بها عليه من خلقه وقطع عذره إذا انتهت إليه فيما جعلت حجّة فيه »[1] إنّ المشركين كاذبون ويتّبعون الظّنّ وليس لديهم علم . وإنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله الكريم وأوحى إليه كتابه العظيم وبهما طريق الضّلالة قد افتضح وطريق الهداية قد اتّضح ، فمن أعرض عن ذكري ورسولي زدته عمىً إلى عماه وضلالاً إلى ضلاله ومن أقبل على ذكري ورسولي زدته هدىً إلى هداه ونور بصيرةٍ إلى نوره : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾[2] إنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لهدى النّاس جميعاً ولكنّه لم يشأ جلّ وعلا أن يوفقّهم جميعاً إلى الهداية ولكنّه جلّ وعلا شاء لهم الدّعوة إلى الهداية جميعاً « بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك . وهو المقصود بقوله تعالى : وجعلنا منهم أئمّةً يهدون بأمرنا »[3]

ولّما كان القوم كاذبين فإنّ الآية الكريمة التّالية توصد على القوم هذا المنفذ .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

حينما لا يكون لدى المشركين الّذين حرّموا من الأنعام والحرث ما لم يأذن به الله تعالى علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير يصحّ أن يكون عندهم شهود . وإنّ الله سبحانه وتعالى عالم السّرّ وأخفى يعلم أنّه ليس ثمّة شهودٌ عدولٌ في هذه المسألة لأنّه جلّ وعلا لم يأذن بها

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥٩/٨ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٩ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني « هدى » ٥٣٨ .

فبقي إذن أن يكون هؤلاء الشّهود إن وجدوا شهود زور . في ضوء هذه الحقيقة تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين هاتوا شهداءكم[1] وأحضروهم[2] وقدّموا للشهادة هؤلاء الشّهداء الّذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا الّذي حرّمتم من الأنعام والحرث . فإن حضر هؤلاء الشّهداء وتقدّموا للإدلاء بالشّهادة فلا تشهد معهم لأنّها شهادة كذبٍ وزور والله سبحانه وتعالى يقول الحقّ وهو جلّ وعلا يهدي السّبيل ، ولا تتّبع يامحمّد أهواء الّذين كذّبوا بآياتنا في التّحريم بغير علمٍ وفي التّكذيب استجابةٌ لنداء النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم ، والّذين لا يؤمنون بالآخرة بل يعتبرون الحياة الدّنيا غاية المنى ونهاية المطاف فلا عملٍ للحياة الآخرة ولا استعداد لما بعد الموت ، والّذين هم بربّهم يشركون ويجعلون له عديلاً وندّا ، ومن مظاهر شركهم تحريم ما أحلّ الله تعالى من الأنعام والحرث استجابةً منهم لشياطين الإنس والجنّ .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

قل تعالوا : هلمّوا وأقبلوا[3] .

أتل ما حرّم ربّكم عليكم : أقصّ عليكم وأخبركم[4] وأقرأ عليكم[5] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥٩/٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦٠/٨ .

وبالوالدين إحسانا : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أي أن تحسنوا إليهم[1] وحذف أوصى وأمر لدلالة الكلام عليه ومعرفة السّامع بمعناه[2] .

من إملاق : الإملاق مصدر من قول القائل : أملقت من الزّاد فأنا أملق إملاقاً وذلك إذا فني زاده وذهب ماله وأفلس[3] .

الفواحش : جمع الفاحشة . والفُحْش والفحشاء والفاحشة ماعَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال[4] .

من المعروف أنّ كفّار مكّة ارتكبوا العظيم من الذّنوب والكبير من الآثام وفي مقدّمتها الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه ، هذا إلى تحريمهم بباعثٍ من النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم من الأنعام والحرث ما بيّنته الآيات الكريمات السّابقات . وإنّ هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المناوئين للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد : ﴿ تعالوا ﴾ ومع أنّ المعنى ببساطة أقبلوا إلّا أنّ في جملة ﴿ تعالوا ﴾ زيادة فائدة ودعوةً إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة لأنّها دعوةٌ إلى العلوّ والسّموّ والرّفعة أساساً ، وحتّى حينما أفادت الجملة معنى جملة أقبلوا وما أشبهها تميّزت جملة ﴿تعالوا﴾ بمعنى العلوّ مكاناً الّذي يفيده الأصل : « علا » وقد اقترن بالعلوّ مكاناً العلوّ مكانة . وإنّ هذا السّموّ في التّعامل والنّبل في الخطاب من آداب هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد .

والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يقول للمشركين تعالوا أقرأ عليكم ما حرّم ربّكم عليكم حقّاً وصدقاً وأقصّ عليكم وأخبركم ماأوحاه الله تعالى إليّ قرآناً كريماً ووصّاكم به وأمركم بدلاً من ظنونكم الكاذبة وتخرّصاتكم الّتي أوحت بها إليكم شياطين الإنس والجنّ . إنّ الله تعالى أمركم ووصّاكم ألّا تشركوا به شيئاً . إنّ الشّرك أوّل أمرٍ مرغوبٍ عنه أمّا الأمر المرغوب فيه فهو توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة . وأمركم ووصّاكم بالوالدين إحساناً بأن تبرّوهم وهذا هو الأمر المرغوب فيه أمّا الأمر المرغوب عنه فهو عقوق الوالدين . ويلاحظ أنّ ثمّة نهياً عن الإشراك مع الله تعالى غيره وأمراً ببرّ الوالدين . فالأمر المحرّم عقوق

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢/١٨٨ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨/٦٠ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٦٠ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني « فحش » ٣٧٣ .

الوالدين وهو مفهومٌ من السّياق ، كما يلاحظ أنّ النّهي الضّمنيّ عن عقوق الوالدين والأمر ببرّهما عقب النّهي عن الشّرك دليلٌ على منزلة الوالدين الرّفيعة في الإسلام . وما أكثر المواطن في القرآن الكريم الّتي نهت عن عقوق الوالدين عقب النّهي عن الشّرك . ويلاحظ وراء هذا وذاك أنّ هذا هو الأمر الوحيد في الآية الكريمة بين مجموعة النّواهي ، بمعنى أنّه لا يجيء في الآية الكريمة مثل هذا القول : ولا تعقّوا والديكم . ويصحّ أن يفهم من هذا العدول الوحيد في الآية الكريمة عن النّهي إلى الأمر أنّ في العدول عن النّهي عن الإشراك مع الله تعالى غيره إلى الأمر ببرّ الوالدين تنبيهاً إلى الفرق في الأهمّيّة بين ما يتعلّق بالذّات العليّة ، فلا شيء يعدل قضيّة التّوحيد في الأهمّيّة ، وبين ما يتعلّق بالمخلوق ، ولو كان أولى النّاس بالبرّ وهما الوالدان . والله أعلم .

وبعد بيان حقّ الوالدين الرّفيع في الإسلام تمّ التحوّل إلى حقّ الأبناء الرّفيع في الإسلام كذلك وتمّ التحوّل إلى النّهي : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ والمراد النّهي عن وأد البنات والأولاد . وقد جرت عادة بعض العرب بقتل الأولاد والبنات بسبب الفقر الحاصل العاجل وبسبب الفقر المتوهّم الآجل ، وبقتل البنات خوف السّبي والعار . وإنّ النّهي عن قتل الأولاد هنا يشير إلى أنّه بسبب الفقر الحاصل العاجل ، فالإملاق موجود والفقر متمكّن ولهذا تقدّم النّصّ على رزق الوالدين ابتداءً الأولاد تبعاً . بينما أشار قوله تعالى في سورة الإسراء[1] : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم ﴾ إلى الفقر الآجل المتوهّم ولهذا جاءت لفظة خشية ، وتقدّم النّصّ على رزق الأولاد ابتداءً الوالدين تبعاً .

ثمّ كان التّحوّل إلى النّهي عن مجرّد الاقتراب من الفواحش ، وهي ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال ويدخل في ذلك الزّنى بطبيعة الحال . وإنّ من أقوى الأدلّة على أنّ الزّنى من الفواحش أنّ آيات الحكمة من سورة الإسراء[2] بعد أن نهت عن قتل الأولاد خشية الفقر نهت عن الزّنى بصريح العبارة . قال تعالى[3] : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن

---

(١) الآية ٣١ .

(٢) الآيات ٢٢ ــ ٣٩ .

(٣) سورة الإسراء ٣١ ، ٣٢ .

نرزقهم وإيّاكم . إنّ قتلهم كان خِطْئاً كبيراً . ولا تقربوا الزّنى إنّه كان فاحشةً وساء سبيلا ﴾ وإنّ من أقوى الأدلّة على أنّ الزّنى من الفواحش أنّ الآية الكريمة نهت عن الفواحش الظّاهرة والباطنة :﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ والمعروف أنّ من الزّنى ما يرتكب علناً ومنه ما يرتكب سرّاً وإلى ذلك نبهّت الآية الكريمة الخامسة والعشرون من سورة النّساء الّتي نهت عن الزّنى سفاحاً أي إعلاناً وعن الزّنى سرّاً باتّخاذ الأخدان . قال تعالى : ﴿ فانكحوهنّ بإذن أهلهنّ وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصناتٍ غَيْرَ مسافحاتٍ ولا متّخذات أخدان ﴾ .

ومن الأدلّة كذلك على أنّ الزّنى من أقبح الفواحش وأنّ النّهى عن ارتكابه مقصودٌ بقوّة في الآية الكريمة أنّ النّهي عن الاقتراب من الفواحش يسبقه النّهي عن قتل الأولاد ويلحقه النّهي عن قتل النّفس الّتي حرّم الله تعالى إلاّ بالحقّ . والمعروف أنّ الزّنى في الحقيقة قتلٌ للنّفس لأنّ الزّاني يقتل نطفته بوضعها في غير موضعها الصّحيح ، ولأنّ النّطفة لا تودّي إلى الإنجاب الغرض الأساسيّ منها ، ولو أدّت الغرض منها فإنّ ضياع ابن الزّنى وبنت الزّنى غالباً في هذه الحياة قتلٌ في الحقيقة لهذه النّفس ، هذا إذا نجا ولد الزّنى من عمليّة الإجهاض والقتل .

وإنّ مجيء النّهي عن الاقتراب من الفواحش إثر النّهي عن قتل الأولاد قوّةٌ للرّأي الّذي يرى الزّنى غرضاً أساسياً للجزئيّة الكريمة فقد عرفنا الزّنى قتلاً في الحقيقة للأولاد .

وتحقيقاً من الآية الكريمة لشمول النّهي عن ارتكاب سائر أنواع القتل ، وتحقيقاً لتدرّج التحوّل البديع من الأقرب إلي القريب تتحوّل من الوالدين والأولاد إلى الّذين يقلّون قرباً ويتّجهون بعداً وذلك في القول :﴿ ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ﴾ جاء في الصّحيحين عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يحلّ دم امرىء مسلمٍ يشهد ألاّ إله إلّا الله وأنّي رسول الله إلّا بإحدى ثلاث : الثّيّب الزّاني والنّفس بالنّفس والتّارك لدينه المفارق للجماعة[1] فالزّاني المحصن والقاتل والمرتدّ يحلّ الإسلام دمه .

ولّما كانت هذه الأمور بحاجةٍ إلى استعمال العقل فيها استعمالاً صحيحاً جاء النّصّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨٩/٢

على استعمال العقل في الجزئيّة الكريمة الأخيرة :﴿ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون ﴾ إنّ من استعمل عقله استعمالاً صحيحاً لا يمكن أن يرتكب حماقة من الحماقات الّتي نهت عنها الآية الكريمة .

ورد في الصّحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله ﷺ : أيّ الذّنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك . قلت ثمّ أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . ثمّ تلا رسول الله ﷺ : والّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم الله إلاّ بالحقّ ولا يزنون . الآية[1]

وفي الصّحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال : سألت رسول الله ﷺ : أيّ العمل أفضل ؟ قال : الصّلاة على وقتها . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : برّ الوالدين . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال الجهاد في سبيل الله . قال ابن مسعود : حدّثني بهنّ رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[2] .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

حتّى يبلغ أشدّه : الأشدّ جمع شدّ كما الأضرّ جمع ضرّ وكما الأشرّ جمع شرّ . والشّدّ القوّة وهو استحكام قوّة شبابه وسنّه كما شدّ النّهار ارتفاعه وامتداده . يقال : أتيته شدّ النّهار ومدّ النّهار وذلك حين امتداده وارتفاعه [3] .

بالقسط : بالعدل[4]

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨٨/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٨٨/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٦٢/٨ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٦٣/٨ .

وبعهد الله أوفوا : يقول وبوصيّة الله الّتي أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم وأن يعملوا بكتابه وسنّة رسوله ﷺ[1]

عُنِيت الآية الكريمة السّابقة بالعقيدة وبالنّفس الإنسانيّة فنهت عن الشّرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد بطريق مباشر عن طريق عمليّة الوأد وبطريقٍ غير مباشر عن طريق جريمة الزّنى وقتل النفّس الّتي حرّم الله تعالى إلاّ بالحقّ . وهذه الآية الكريمة تُعْني بالمعاملة وبالمال إضافةً إلى العناية بجانب العقيدة وذلك في الأمر بالوفاء بعهد الله تعالى . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تأمر بالوفاء وبالعدل ، كما يلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة قد ختمت بجانب العقيدة بينما ابتدأت الآية الكريمة السّابقة بجانب العقيدة . ويصحّ أن يتبيّن حظّ الآيتين الكريمتين المتساوي في جانب العقيدة .

تُعْني الآية الكريمة ابتداءً بجانب اليتامى أضعف الجوانب الّتي هي بحاجةٍ إلى تقوية وعناية في مجال المال بسبب ضعفهم وقلّة حيلتهم وصغر سنهم : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه ﴾ والآية الكريمة تنهى الأوصياء بخاصّة عن مجرّد الاقتراب من اموال اليتامى فكيف بأكلها إلاّ إذا كان الاقتراب من أموال اليتامى في الطّريقة الّتي هي أحسن وذلك بالمحافظة عليها وتنميتها والحرص على مصلحة اليتامى . فإذا بلغ اليتيم أشدّه وأدرك الحلم وعرف ما ينفعه ويضرّه أعطي ماله . ومن متعلّقات الطّريقة الّتي هي أحسن أنّ الوصيّ الغنيّ يستعفف عن مدّ يده إلى مال اليتيم وأنّ الوصيّ الفقير يأكل بالمعروف . قال الفقهاء : له أن يأكل أقلّ الأمرين ، أجرة مثله أو قدر حاجته[2] وقد جاء في سورة النّساء[3] قوله تعالى :﴿ وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النّكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا . ومن كان غنيّاً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا ﴾ وجاء في سورة البقرة[4] قوله تعالى :﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير . وإن تخالطوهم فإخوانكم . والله يعلم المفسد من المصلح . ولو شاء الله لأعنتكم . إنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٦٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٥٣ .
(٣) الآية ٦ .
(٤) الآية ٢٢٠ .

أما وقد أصلحت الآية الكريمة أضعف جوانب التّعامل بالمال ألا وهو جانب اليتامى فإنّها تتحوّل إلي مطلق التّعامل في هذا الجانب فتصلحه : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفساً إلاّ وسعها ﴾ وتُعْنَى الآية الكريمة بالكيل والميزان باعتبارهما عماد المعاملات الماليّة فتأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل في حال البيع والشّراء معاً . وحينما تقدّم الآية الكريمة الكيل على الوزن فكأنّها تنبّه إلى غلبة التّعامل بالكيل على التّعامل بالوزن والمعروف أنّ عماد المال الحبوب ، وأنّ الحبوب مرتبطة بالكيل أساساً .

وحينما يكون البائع والمشتري صادقي النّيّة لايريدان في الكيل والوزن تطفيفاً ولا بخساً ويقعان خطأً في بعض المحظورات فإنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم لأنّ الله سبحانه وتعالى قد تجاوز للأمّة المحمّدية عن الخطأ والنّسيان[1] وانظر إلى فضل الله تعالى علينا حينما تستعمل الآية الكريمة لفظة وُسْع وليس لفظة طاقة مثلاً . إنّ لفظة طاقة تستهلك كلّ الجهد . وإنّ لفظة وسع تستهلك بعض الجهد لا كلّه إذ يبقى وراء ذلك سعةٌ في الجهد وبقيّة في القدرة ما أرأف ربّ العباد وأرحمه بعباده .

وبعد تغطية الفعل الّذي يعتبر المال عماده والأمر بالقسط فيه وبالعدل والوفاء يتمّ التّحوّل إلى القول الّذي ينال العناية ذاتها : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ والمعنى وإذا قلتم قولاً أو حكمتم حكماً فليكن العدل غايتكم ولو كان المقول له أو عليه والمحكوم له أو عليه ذا قربى . إنّ عليكم ألاّ تصغوا لقول من قال إنّكم مالأتم قريبكم بالحكم له والقول في صالحه ، أو جحدتم حقّ قربه منكم بالحكم ضدّه والقول في صالح خصمه ، مادمتم تتوخّون العدل في حكمكم وقولكم ، فإنّ رضا الله تعالى هو في العدل وحده . جاء في سورة النّساء[2] قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تَلووا أو تُعْرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيرا ﴾

---

(١) انظر مثلاً تفسير القرطبيّ ١٢٣٩ وتفسير ابن كثير ١٨٩/٢ .

(٢) الآية ١٣٥ .

أما وقد تمّ إصلاح جانبي الفعل والقول في حقّ البشر ، ويلاحظ تقديم الفعل لأهمّيّته ، فإنّه يتمّ التّحوّل إلى إصلاح جانبي الفعل والقول معاً في أهمّ الجوانب ألا وهو جانب العقيدة . وبهذا يحدث التّوازن بين الآيتين الكريمتين المترابطتين في العناية بهذا الجانب : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ وإنّما يكون الوفاء بعهد الله تعالى بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وطاعته جلّ وعلا وطاعة رسوله المصطفى ﷺ طاعةً مطلقة ، وذلك بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ .

وإذا كانت الأمور الّتي عنيت بها الآية الكريمة السّابقة تحتاج إلي استعمال العقل وقد نبهّت على ذلك بالقول : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكّم تعقلون ﴾ فإنّ هذه الأمور الّتي عنيت بها الآية الكريمة التّالية تستوعبها وتقوم بها النّفس الّتي تذكّرها الموعظة بما يجب عليها قوله وفعله ممّا يعتبر حقّاً لله تعالى وحقاً لعباد الله تعالى وبخاصّةٍ اليتامى الّذين هم أحوج الخلق لمن يعطف عليهم ويرحمهم ويرعى مصالحهم . لقد نبّهت الآية الكريمة على ذلك بالقول . ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون ﴾

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

صحّحت الآيتان الكريمتان السّابقتان جانب العقيدة وبينتا الطّريق الصّحيح في مجال الأفعال والأقوال والمعاملات . وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن الصّراط المستقيم والطّريق القويم الّذي ينبغي أن يسلكه المسلم لله ربّ العالمين كي يكون مطمئناً إلى سلامة المعتقد وصحّة الفعل والقول والمعاملة ، أمّا هذا الطّريق فهو القرآن الكريم النّور المبين والصّراط المستقيم وحبل الله تعالى المتين والمعجزة الكبرى الخالدة لدين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لنا وأتمّ به النّعمة علينا . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هذا القرآن الكريم صراط الله تعالى المستقيم ، والمعروف أنّ سنّة المصطفى ﷺ مبيّنةٌ للقرآن الكريم ، وانظر إلى جملة : ﴿ فاتّبعوه ﴾ الّتي تستعمل هنا وليس جملة فاسلكوه مثلاً ممّا يعتبر قوّةً للفهم بأنّ المراد بالصّراط المستقيم القرآن الكريم المعجزة الكبرى لهذا الدّين . ويفهم من جملة : ﴿ فاتّبعوه ﴾ الاتّباع المطلق

فليس ثمّة مجالٌ للابتداع في هذا الدّين لأنّ الله سبحانه وتعالى أكمل هذا الدّين لنا إذ ليس ثمّة نقصٌ كي يكمل . وفي الوقت ذاته لا يحقّ للمسلم لله ربّ العالمين أن يقصّر في جنب الله تعالى .

وهذا الصّراط المستقيم والنّور المبين وحبل الله تعالى المتين هو سبيل الله تعالى والطّريق الوحيد الموصل إليه جلّ وعلا والّذي ينبغي سلوكه . وبهذا يتبيّن أنّ جملة : ﴿ فاتّبعوه ﴾ تعني اتّباع تعاليم القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين ، وأنّ لفظة سبيل تعني أنّ هذا السّبيل هو الّذي ينبغي أن يسلك ألا وهو دين الإسلام الّذي لا يقبل الله تعالى من أحدٍ ديناً سواه ، والّذي بيّنه القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ .

وإذا كانت الآية الكريمة تأمر باتّباع النّور المبين وسلوك الصّراط المستقيم وسبيل الحقّ المبين فإنّها تنهى عن اتّباع السّبل الأخرى الشّيطانيّة الّتي تتفرّق بالسّالكين عن سبيل الله تعالى وتميل بهم عن الصّراط المستقيم وتصرفهم عن الاهتداء بنور الله تعالى المبين ، وتشتّتهم عن التّمسّك بحبل الله تعالى المتين .

ويلاحظ بشأن السّبل الشّيطانيّة استعمال النّهى عن الاتّباع : ﴿ ولا تتّبعوا ﴾ واستعمال لفظ السُّبل . وبما أنّ السّبل هنا تقابل السّبيل والصّراط المستقيم هنالك ، وبما أنّ الأمر بالاتباع هنالك معناه اتّباع القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ فهما مصدرا التّعاليم الإسلامية الأوّلان فما معنى النّهى عن اتّباع السّبل ؟ وما الّذي يقابل الأمر باتّباع القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة ؟ .

معنى النّهى الانتهاء عن الشّرك ، والّذي يقابل الأمر باتّباع القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة ، النّهي عن اتّباع الشّيطان الرّجيم عليه لعنة الله تعالى الّذي لا نهاية لسبله المؤدّية إلى النّار وبئس القرار بينما سبيل الله تعالى واحدة وهى المؤدّية وحدها إلى الجنّة الّتي فيها مالاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبما أنّ اتّقاء النّار والارتقاء إلى مرتبة التّقوى إنّما يتمّ عن طريق الاتّباع المطلق لتعاليم القرآن الكريم وسنّة المصطفى لله فإنّ الآية الكريمة في سبيل تعميق هذه المعاني تنصّ على التّقوى هنا الّتي يصحّ أن تنال بفضلٍ من الله تعالى عن طريق اتّباع النّور المبين والاهتداء إلى الصّراط المستقيم وسلوك سبيل الله تعالى القويم .

روى الإمام أحمد وآخرون عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ

خطّ خطّاً بيده ثمّ قال : هذا سبيل الله مستقيما . وخطّ عن يمينه وشماله ثمّ قال : هذه السّبل ليس منها سبيلٌ ألاّ عليه شيطانٌ يدعو إليه ، ثمّ قرأ : وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله[1] .

(١) تفسير ابن كثير ١٩٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٦٥/٨ .

آتى اللّٰه موسى التّوراة وآتى محمّدًا القرآن

فآمِنوا وافعلوا الخير قبل فوات الأوان

الآيات (١٥٤ - ١٥٨)

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

ثمّ آتينا : ثمّ في كلام العرب حرفٌ يدلّ على أنّ ما بعده من الكلام والخبر بعد الّذي قبلها[1] وهو هنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للتّرتيب[2] ولهذا الحرف المعنى نفسه في الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين بعد المائة من سورة البقرة . قال تعال :﴿ ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ [3]

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد آتى موسى عليه السّلام الكتاب وأعطاه التّوراه ، والمعروف أنّ موسى عليه السّلام يسبق زمناً كلاً من عيسى عليه الصّلاة والسّلام ومحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، والمعروف كذلك أنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل جميع رسله برسالة الإسلام ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمدّ بن عبد الله ﷺ ، والمعروف كذلك أنّ ثمّة مجموعةً من الأوامر والنّواهي غير قابلةٍ للنّسخ في كافّة الشّرائع السّماوية ومن هذه الأوامر والنّواهي ما تضمّنته آيات الحكمة من سورة الإسراء[4] وما تضمّنته الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات من سورة الأنعام بمعنى أنّ هذه الأوامر والنّواهي آتاها الله سبحانه وتعالى السّابقين على موسى عليه السّلام ثمّ آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام الكتاب المتضمّن لهذه الأوامر والنّواهى غير القابلة للنّسخ في سائر الشّرائع .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد آتى موسى عليه السّلام التّوراة تماماً لنعمه جلّ وعلا عليه وجزاءً على الّذي أحسن موسى عليه السّلام القيام به وتفصيلاً لكلّ شيءٍ من

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٦/٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩١/٢ .

(٣) انظر هنا الكشّاف ٢٦٥/١ وتفسير القرطبيّ ٨٠٠ .

(٤) الآيات ٢٢ ــ ٣٩ وانظر هنا البحر المحيط ٣٨/٦ وتفسير ابن كثير ١٨٧/٢ وآيات الحكمة من سورة الإسراء مفصّلة لآيات سورة الأنعام .

أمور الدّين وهدىً لبني إسرائيل من الضّلالة ورحمة للمؤمنين لعلّ بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام يؤمنون بلقاء ربّهم ويوقنون بالبعث بعد الموت والحساب فالثّواب والعقاب ، ولعلّهم يحسنون العمل في الدّار الأولى دار العمل والكدح كي ينالوا الجزاء الأوفى في الآخرة الّتي هي خيرٌ من الأولى .

وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

بعد حديث الآية الكريمة السّابقة عن التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والمعروف أنّ الإنجيل الّذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام متمّمٌ للتّوراة ، تحدّثت هذه الآية الكريمة عن القرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ . والآية الكريمة تشير إلى القرآن الكريم باسم الإشارة الدّالّ على القرب وفي ذلك تنبيهٌ لرفعة شأن هذا الكتاب الكريم وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وإنّه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾

والآية الكريمة تشير إلى القرآن الكريم من زاوية كونه مكتوباً فهو كتاب ، والمعروف أنّ كلاً من الصّدر والسّطر تعاونا على حفظ هذا الكتاب العزيز ، كما تشير الآية الكريمة إلى كون القرآن الكريم موحًى به من ربّ العالمين نزل به ملكٌ من السّماء كريم على رسولٍ من البشر كريم . وتصف الآية الكريمة هذا الكتاب المنزل بأنّه كتابٌ مبارك تنال بركته كلّ من ارتبط منه بسبب فعلى النّاس جميعاً ، ابتداءً بكفّار مكّة ، أن يتّبعوا هذا الكتاب العزيز وأن يستوعبوا معانيه وأن يترجموها إلى عمل وأن يظلّوا مستمسكين بهذا الكتاب العزيز وبسنّة المصطفى ﷺ المبيّنة له حتّى يرقوا إلى مرتبة التّقوى فلعلّ رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ أن تشملهم . وإذا كانت التّقوى تبدأ باتّقاء النّار بعمل الحسنات واجتناب السّيّئات فإنّها تظل ترقى حتّى تكون الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

---

(١) سورة فصّلت ٤١ ، ٤٢ .

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

أنزل الله تعالى القرآن الكريم الكتاب المبارك لئلاّ تقولوا أيّها العرب ، يامن نزل القرآن الكريم بلسانكم ، إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا هم اليهود والنّصارى في رأي ابن عبّاس[1] التّوراة أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام وإنّا كنّا عن دراستهم لغافلين وتلاوتهم وتدبّرهم الكتابين السّماويّين لجاهلين لأنّ لغة الكتابين ليست لغتنا ولأنّ رسولي الكتابين السّماويّين لم يبعثهما الله تعالى إلينا .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل هذا الكتاب العزيز على النّبي العربّي القرشيّ الهاشميّ كي تتلو هذا الكتاب أمّته الّتى هي خير أمّةٍ أخرجت للنّاس وتتدبّره وتترجم تعاليمه وتعاليم السّنّة النّبويّة المطهّرة المبيّنة له إلى عمل .

أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

أنزل الله سبحانه وتعالى الكتاب المبارك على خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بلسانٍ عربّي مبين لئلاّ تقولوا يا أيّها العرب إنّما أُنزِل الكتاب على طائفتين من قبلنا أو لئلاّ تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب بلساننا وعلى نبيّ من بين ظهرانَيْنا لكنّا أهدى من طائفتي اليهود والنّصارى وأقرب إلى الصّواب وأدنى إلى الرّشد فقد جاءكم أيّها العرب ووصل إليكم فعلاً

(١) تفسير الطّبريّ ٦٩/٨ .

بيانٌ من ربّكم وكتابٌ معجز وحجّةٌ بيّنة وهدىً لكم من الضّلالة ورحمة للمؤمنين الّذين يتّبعونه ويترجمون تعاليمه إلى عمل . والمعروف أنّ ربّ العزّة تكفّل لمن اتّبع هذا الكتاب العزيز الهدى من الله تعالى بأنّه لن يضلّ في الدّنيا ولن يشقى في الآخرة . قال تعالى[1] :﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوّ . فإمّا يأتينّكم منيّ هدىً فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى ﴾

وبعد تبشير الآية الكريمة بالكتاب العزيز تنذر به فتقرّر أنّه لا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الكتاب العزيز وصدف عنها ، بمعنى أعرض عنها أشدّ الإعراض وأقواه . وقد فطن العلماء في جملة ﴿ صدف ﴾ أنّها ذات علاقةٍ بالصّدف أي الميل في أرجل البعير ، فمعنى صدف مال وأعرض إعراضاً شديداً وولّى ذاهباً ، وأنّها ذات علاقةٍ كذلك بالصّدف أي جانب الجبل الّذي سميّ بذلك لميله إلي إحدى الجهتين ، وبذلك تضاف إلى الميل والإعراض الصّلابة والقسوة والقوّة . ومن أجل ذلك يتجاوز الصّادف عن الحقّ في العادة الإعراض إلى صدّ الآخرين عن سبيل الله تعالى[2] .

إنّ الآية الكريمة تنذر المعرضين عن آيات الله تعالى وتحذّر الصّادّين عن سبيل الله تعالى بأنّ الله سبحانه وتعالى سيجزيهم سوء العذاب بما كانوا في الحياة الدّنيا يصدفون عن آيات الله تعالى ويصدّون عن سبيله جلّ وعلا .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

تسأل الآية الكريمة هل ينتظر أولئك الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى وصدفوا عنها من

---

(١) سورة طه ١٢٣ .

(٢) انظر هنا معجم مقاييس اللّغة « صدف » ٣٣٨/٣ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صدف » ٢٧٦ .

كفّار مكّة ومن شاكلهم هل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة أو يأتي أمر ربّك جلّ وعلا يامحمّد بعذابهم أو يأتي بعض آيات ربّك الدّالّة على قيام السّاعة من علاماتٍ وأماراتٍ وأشراط كما قال البخاريّ في تفسير هذه الآية[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها فإذا رآها النّاس آمن من عليها فذلك حين : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ [2]

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه يوم يأتي بعض آيات الله تعالى من أشراطٍ للسّاعة وعلامات كطلوع الشّمس من مغربها لا ينفع أيَّ نفس إيمانها آنذاك إذا لم تكن آمنت من قبل ولم تكن قد كسبت وهي مؤمنةٌ خيراً وعملت صالحاً قبل مجيء أشراط السّاعة . بمعنى أنّ التّوبة لا تُقْبل ولا تنفع بعد مجيء أشراط السّاعة كما لا ينفع الإيمان آنذاك .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المشركين الصّادفين عن آيات الله تعالى انتظروا هذه الأشياء فإنّا منتظرون .

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٧٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٩٣ وانظر تخريجه للحديث رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

اعتصموا بحبل الله

وافعلوا الخير وأسلموا وعبدوه وتوكلوا عليه المصير

الآيات (١٥٩ - ١٦٥)

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

بعث الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام وأنزل عليه التّوراه وقد افترق اليهود بعده عليه السّلام إلي إحدي وسبعين فرقة كما جاء في الحديث . وبعث الله تعالى عيسى عليه السّلام وأنزل عليه الإنجيل وقد افترق النّصارى بعده عليه السّلام إلي اثنتين وسبعين فرقة كما جاء في الحديث كذلك . وبعث الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمدّ بن عبد الله ﷺ وأنزل عليه خاتم الكتب وأشرفها القرآن الكريم ، والمعروف أنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمدّ بن عبد الله ﷺ ناسخ لسائر الأديان ، وأنّ القرآن الكريم مهيمن على الكتب قبله فعلي النّاس جميعاً ، وفيهم اليهود والنّصارى ، أن يتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ محمدّ بن عبد الله ﷺ . وكما جاء في الحديث النّبويّ الشّريف ستفترق أمّة محمدّ بن عبد الله ﷺ إلي ثلاثٍ وسبعين فرقة كلّها في النّار إلاّ واحدة ، وهي الفرقة الّتي لها في رسول الله أسوةٌ حسنة وفي أصحابه عليه الصّلاة والسّلام والّتى تتمسّك بالقرآن الكريم وبسنّة المصطفى ﷺ .

وحينما تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين فرّقوا دينهم باختلافهم فيه فقبلوا بعضه ورفضوا بعضه وكانوا شيعاً متفرّقة وأحزاباً متنازعة وفرقاً متقاتلة جعلت القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ وراءها ظهريّاً حينما تقرّر الآية الكريمة أنّ هؤلاء الّذين تلك صفاتهم ليس المصطفى ﷺ منهم في شيءٍ من أمر الدّين وليسوا من المصطفى ﷺ في شيءٍ من أمر الدّين كذلك لأنّهم أهل البدع والخرافات والضّلالات تكون هذه المعاني آكد في حقّ اليهود والنّصارى لأنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ ناسخٌ للدّيانات السّماويّة ومن باب الأولى والأحرى غير السّماويّة . والعجيب في أمر هذه الشّيع أنّ كلّ حزبٍ فرحٌ بما لديه دون أن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً بالاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنّة حبيبه ﷺ المبيّنة للقرآن .

وتردّ الآية الكريمة الأمر لله تعالى وحده لا شريك له فتقرّر أنّ مرجعهم إلى الله تعالى يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم وفي ذلك اليوم المجموع له النّاس

المشهود ينبّئهم جلّ وعلا بما كانوا يفعلون في الدّنيا من خيرٍ وشرّ ، حسنات وسيّئات وسيجازى جلّ وعلا كلاً بما فعل من خيرٍ أو شرّ : ﴿ ولا يظلم ربّك أحدا ﴾[1] .

والآية الكريمة التّالية تبيّن بعض فضل الله تعالى وعدله .

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

تبيّن الآية الكريمة فضل الله تعالى بشأن المحسنين وعدله جلّ وعلا بشأن المسيئين فتقرّر أنّ من جاء بالحسنة فله جزاء عشر حسناتٍ أمثالها ، وأنّ من جاء بالسّيّئة فلا يجزى المسيء إلاّ مثلها بأن تكتب له سيّئةٌ واحدة . والمحسنون والمسيئون لا يُظْلمون بحذف حسنة ونقصها أو إضافة سيّئةٍ وزيادتها . وهكذا يتبيّن فضل الله تعالى بشأن الحسنة وعدله جلّ وعلا بشأن السّيّئة . بل إنّ ثواب الحسنة يصل إلي سبعمائة ضعف وإلي أكثر من ذلك بفضل الله تعالى ومنّه . قال تعالى [2] : ﴿ مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلةٍ مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسعٌ عليم ﴾ .

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال فيما يروى عن ربّه تبارك وتعالى : إنّ ربّكم عزّ وجلّ رحيم . من همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً إلي سبعمائة إلي أضعافٍ كثيرة . ومن همّ بسيّئةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عزّ وجلّ . ولا يهلك علي الله الاّ هالك . ورواه البخاريّ ومسلم والنّسائي[3] وروى الإمام أحمد عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : يقول الله عزّ وجلّ من عمل حسنةً فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيّئةً فجزاؤها مثلها أو أغفر ، ومن عمل قِراب[4] الأرض

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٦١ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٩٦/٢ .

(٤) القراب بكسر القاف وضمّها : ما قارب قدره .

خطيئة ثمّ لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة . ومن اقترب إليّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ومن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً . ومن أتاني يمشي أتيته هرولة . ورواه مسلم وابن ماجة[1] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال :من همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيّئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيءٌ فإن عملها كتبت عليه سيّئة واحدة[2]

ويقول ابن كثير[3] : « واعلم أنّ تارك السّيّئة الّذي لا يعملها على ثلاثة أقسام تارةً يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفّه عنها لله تعالى . وهذا عملٌ ونيّة . ولهذا جاء أنّه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصّحيح فإنّما تركها من جرّائي أي من أجلي . وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنّه لم ينو خيراً ولا فعل شرّاً . وتارةً يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السّعي في أسبابها والتّلبّس بما يقرّب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصّحيح عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : إذا التقى المسلمان بسيفهيما فالقاتل والمقتول في النّار . قالوا يارسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنّه كان حريصاً على قتل صاحبه »

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾

بعد الدّعوة للانضمام إلى الفرقة النّاجية وبيان فضل الله تعالى على محسني هذه الأمة وعدله مع مسيئيها تبيّن هذه الآية الكريمة أنّه لولا أن هدانا الله تعالى ما كنا لنهتدي فتأمر المصطفى ﷺ أن يقول : إنّني هداني ربّي جلّ وعلا إلى صراطٍ مستقيم وطريقٍ قويم هو دين الإسلام الّذي بعثني الله تعالى به والّذي لا يقبل جلّ وعلا من أحدٍ ديناً سواه وعرّفني

---

(١) تفسير ابن كثير ١٩٦/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩٦/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٩٦/١٢ .